« زخارف قبطية »

فيلم تسجيلى ملون فى نصف ساعة

(ناطق باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والاسبانية والالمانية)

سيناريو واخراج : عبد القادر التلمسانى
تصوير : حسن التلمسانى
مونتاج : عبد العزيز فخرى
فكرة : عادل طاهر
المادة العلمية : فيكتور جرجس
تعليق : صلاح حافظ
موسيقى : سليمان جميل
مهندس الصوت : كمال عبد الله
انتاج سنة ١٩٧٥

الموضوع :

دراسة فنية للزخرفة القبطية منذ القرن الأول الميلادى حتى العصر الحديث.. من خلال جولة بالكاميرا فى المتحف القبطى.. والكنائس والأديرة القديمة فى القاهرة.. وفى صحراء وادى النطرون، وفى جبال البحر الأحمر وفى الريف.. وفى صعيد مصر.. **وقد نال هذا الفيلم جائزة التصوير وجائزة الاخراج فى مهرجان الافلام التسجيلية والقصيرة الذى نظمته وزارة الثقافة عام ١٩٧٦. ونال شهادة تقدير من المركز الكاثوليكى المصرى للسينما عام ١٩٧٦. كما نال جائزة تقديرية فى مهرجان القاهرة الدولى الثانى عام ١٩٧٧، ومثل مصر فى الندوة العالمية عن (أفلام الفن) التى عقدت فى مدينة يريڤان عاصمة جمهورية أرمينيا تحت إشراف هيئة اليونسكو عام ١٩٧٧. كما مثل مصر فى مهرجان (أفلام الفن) فى مدينة أوسلو بايطاليا عام ١٩٧٨.. ومهرجان الفيلم العربى بامستردام فى هولندا عام ١٩٧٩.**

obeikandl.com

التعليـــق :

● لا ينفصل الناس أبداً عن جذورهم ، وفى مصر يحمل الأقباط سعف النخيل مرة كل عام .. فى نفس الموعد الذى دخل فيه المسيح بيت المقدس .. واستقبله أهلها بأغصان النخيل .. رمزاً للبعث والسلام .. وما يزال هذا العيد فى مصر مهرجانا لفن تشكيل السعف .. والفن بعض جذور الناس لا ينفصلون عنها .

● نعم لا ينفصل الناس عن جذورهم .. ولا يزال فى مصر أساتذة مثل اسحق فانوس يزودون الكنائس والأديرة بأعمال تواصل تقاليد الفن القبطى القديم وتتغذى من نفس جذوره .

● وفى أعماق الصعيد أيضاً .. تواصل الشجرة طرح الثمار .. فى مدرسة أخميم الشعبية .. وغيرها .. والثمار هنا .. لوحات من النسيج الملون تصور العماد .. أو رحلة العائلة المقدسة .. أو مهرجان السعف .. نفس الموضوعات . وغذاؤها أيضاً من نفس الجذور .

● تعال الآن نرى منبت هذه الجذور ..

هنا فى حى مصر القديمة .. على أطلال حصن بابيلون الرومانى .. الذى يعود تاريخه إلى أوائل القرن الثانى الميلادى .

تعال نبدأ جولتنا بالمتحف القبطى ، فهو يضم كنوزا من مختلف أنحاء مصر ومختلف حقبات الفن القبطى .

● ان هذا المتحف يروى القصة من بدايتها .. من علامة «عنخ» (أى الحياة) الفرعونية عندما ظهر بجوارها الصليب .. ثم حل محلها .. وأصبح شكلها مميزا للصليب المصرى حتى الآن .

● ويضم المتحف أيضاً أقدم منبر قبطى عثر عليه فى دير القديس أرميا .. بجوار هرم سقارة المدرج . وقد اقتبسه الأقباط من المنبر الفرعونى . وشاع بعد ذلك فى مختلف العمائر الدينية .

● أما الأعمدة فتسجل كل ما تعرض له الفن القبطى من مقومات أصيلة وتأثيرات دخيلة .. فأقدم الزخارف مثلاً .. أساسها ورقة نبات الأكانتا الذى ورد إلى مصر مع اليونان والرومان .

● ولكن سرعان ما فرضت أوراق النباتات المصرية نفسها .. العنب والنخيل والرمان . على الكرانيش أيضاً جاءت ورقة الأكانتا فى البداية واختلطت بها تأثيرات أجنبية أخرى بعضها من آسيا .

● ثم تطورت زخارف الكرانيش حتى صارت مصرية خالصة .

● فى هذه المنحوتات الوثنية التى ترجع إلى فجر الفن القبطى يعود المصرى مصريا .. وتعود العيون التى يرسمها فرعونية بشكلها اللوزى .

● ويستمر الفنان يمثل مناظر الصيد المألوفة مسجلا فى زخارفه رموز الفن القبطى كالسمك والحمام والطاووس.

● وعلى هذا الإفريز سجل الفنان المصرى رحلة العنب منذ أن يزرعه.. إلى أن يجمع ثماره وينقلها إلى المعاصر.

● ولقد استعار الفن القبطى من التراث الرومانى قبسا ناسب مزاجه.. فنجد قوقعة فينوس منتشرة فى عمارة الكنيسة.. وأصبحت الشكل المفضل للقبلة التى يطلق عليها الأقباط إسم «الشرقية».. على أن الفنان المصرى سرعان ما زين بالرسوم جدران القوقعة.. وهذه شرقية «باويط» فى صعيد مصر من القرن السادس للميلاد تزخر بمجموعة رائعة من الوجوه المقدسة.. وهى وجوه تبدو متشابهة لأن الفنان القبطى لم يكن يرسم أشخاصا.. وإنما موضوعات.

● وفى رسوم الايقونات أيضاً يفصح الفنان القبطى عن اهتمامه بالموضوع دون الشكل.. وعن قدرته الخارقة على رواية التاريخ بالخطوط والألوان.. والفن القبطى فن شعبى يتسم بالبساطة.

● أما الأصالة على حقيقتها.. فتراها بوجه خاص فى لوحات النسيج المرسّم ذى الزخارف المنسوجة.

● ثم تبلغ الأصالة قمتها فى فن تزيين النوافذ.. فأقباط مصر هم أول من شق الطريق إلى شبابيك الزجاج الملون الذى يزخر بها العالم الآن.

نترك الآن المتحف القبطى.. فهو ليس إلا بداية الجولة.. وعلى مسافة خطوات منه ينتظرنا كنز آخر تضمه الكنيسة المعلّقة التى بنيت فوق حصن بابيلون فى القرن الخامس.

● ان هذه الكنيسة متحف قائم بذاته.. لم يقترض شيئاً من خارجه.. انها التاريخ كما كان.. وكما تركه لنا الأقباط الأوائل.

● فى هذه الكنيسة نرى الفن الإسلامى يلتحم بالفن القبطى ويتحد معه.. فمنذ الفتح العربى أصبح الفن الاسلامى شريكا فى عمارة الكنائس وزخرفتها.. وأضاف إليها روائع الحفر على الخشب وفنون الأرابسك. وأكثر هذه الكنائس القديمة جدّد فى العصر الفاطمى.. ولم لا؟ الدين لله.. والفن للجميع.

● هل تستطيع العين أن تميز بين زخارف هذه الشرقية وبين قبلة أى مسجد مجاور؟.

ولنخرج الآن من الكنيسة المعلّقة إلى هذه القاعة التى كانت مخصصة لحفلات الزواج.. وقد بنيت فى العصر الفاطمى.. وما يزال اسمها «قاعة العرسان».

● فى حوارى بابيلون أيضاً يوجد دير مارجرجس للبنات.. وفيه تحفة لا ينبغى أن تفوت الزائر.. أطول باب فى العمائر القبطية.

● لكنا لم نشاهد بعد أهم كنائس منطقة مصر القديمة وهى كنيسة «أبوسرجة» التى ترجع إلى القرن الخامس الميلادى.. والتى تتمتع بقدسية خاصة.. ففى موقعها مكث المسيح أياما وهو طفل أثناء هروب العائلة المقدسة إلى مصر.

ربما كانت هذه أصغر لوحات الحفر على الخشب من التراث القبطى كله.. فأكبرها لا يزيد إلا قليلاً على حجم الكف.

● إن هذه الكنيسة ليست أغنى من جيرانها بكنوز الفن ولكنها أكثر قدسية.. لأنها تنفرد بالكهف الذى احتمى فيه المسيح أياماً وهو طفل.. هذا الكهف الذى تغمره المياه الآن.

● لكن الفن القبطى لم يبدأ فى المدينة.. وإنما فى الصحراء.. ومن أقدم صوره ما نراه فى أديرة النطرون وبالذات دير العذراء الشهير بالسريان.

● فى كنيسة هذا الدير نجد النماذج الوحيدة للنحت القبطى فى الحجر.. وفيها نلمح تأثيرات آسيوية واضحة.

● لكن دير السريان ليس الوحيد فى صحراء النطرون غرب النيل.. فما تزال ثلاثة أديرة أخرى باقية هناك.. من أشهرها دير الأنبا بيشوى.

فى كنيسة هذا الدير تتألق حالياً أعمال فنية حديثة لفنانين مصريين. ولكن العين لا تميز بسهولة بينها وبين تراث الأقباط القدماء.

● ثم تختلف الصورة تماماً فى دير الأنبا مقار.. الرجل الذى أنشأ مستعمرة الأديرة فى وادى النطرون كله.. ولذلك سمى المكان «برية أبو مقار» وكان ذلك فى القرن الرابع الميلادى.

ينفرد هذا الدير بثروة مذهلة من الزخارف المحفورة على الخشب وزخارف القباب والجدران فضلاً عن أيقونات القديسين والملائكة.

● ثم يبقى أخيراً دير البراموس.. الدير الرابع الباقى من مستعمرة وادى النطرون التى كانت تضم ذات يوم حوالى ستمائة دير جنوب الاسكندرية.. وكانت تضم رهبانا من جنسيات مختلفة.

ويحكى أن ستين ألفا من شيوخ الرهبان فى وادى النطرون خرجوا لاستقبال عمرو بن العاص وتحيته عند فتح مصر وتحريرهم من نير الرومان.

ودير البراموس سمى بهذا الإسم الذى يعنى «الرومانى» لأن ولدى الامبراطور الرومانى أركاديوس ترهبنا فيه.

● هل شبعت من فن الصحراء القبطى؟ تعال إذن إلى أديرة الشرق التى تطل من سفوح الجبال على مياه البحر الأحمر.

● فى رأس غارب.. على خليج السويس.. ينتظرنا دير الأنبا بولا «أبو السواح».. إن كنيسة هذا الدير منحوتة فى الصخر فى نفس المكان الذى كان يتعبد فيه أبو السواح منذ ستة عشر قرنا.

وفى داخلها لاتستطيع أن تميز الحد الفاصل ما بين روعة الدين وروعة الفن.. وكلاهما فى التراث القبطى كله لا يمكن الفصل بينهما.

● على خليج السويس.. ينتظرنا أيضاً فى الزعفرانة دير الأنبا أنطونيوس أبو الرهبان جميعا.. وهذا الدير يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادى.

فى هذا الدير تتنفس هواء يختلط فيه الفن بالرهبة.. وتختلط الرهبة بالرهبنة.. ومعظم الرسوم تبدو وراء غلالة من الرماد.. يقال أنها من آثار حريق قديم.

● والآن نترك البحر والجبل.. والصحراء والمدينة.. لكى نصل إلى أقدم الجذور حقا.. هنا.. فى وادى النيل فى دير جبل قسقام المعروف بالدير المحرّق بالقرب من أسيوط.. والذى يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادى.

● فى هذا الدير توجد أقدم كنيسة على ظهر الأرض تحيط بها كنائس أخرى حديثة ومبانى للضيافة تستوعب الزائرين من مختلف أنحاء العالم.

فى هذا الدير ما يزال ينهض مبنى القصر القديم المعروف بالحصن الذى بناه الامبراطور البيزنطى زينون فى القرن الخامس الميلادى.. والذى كان ملجأ للرهبان ضد غزوات البدو والبرابرة.. ولا يخلو من مثل هذا الحصن أى دير قديم فى مصر..

● أما داخل الحصن فيصلح للاقامة الكاملة لمن يلجأ إليه من الرهبان مهما طالت الغارة.. ففيه مخازن للطعام وحجرات للنوم وكنيسة للعبادة.

● وتبدو وحدة الأديان أوضح ما تكون فى المخطوطات القبطية.. فبعض الأناجيل يبدأ بجملة «هذا المصحف المقدس».. والزخارف لا فرق بينها وبين زخارف المخطوطات الإسلامية فى شكلها المعروف بالمنمنمات.

● والآن ندخل الكنيسة القديمة بالدير المحرّق. وهى أقدم كنيسة فى العالم ويرجع تاريخها إلى القرن الأول للميلاد.. وقد كرّست بإسم السيدة العذراء ودشنها المسيح بنفسه. ففى هذه الساحة عاشت العائلة المقدسة ستة أشهر وعشرة أيام أثناء رحلتها إلى مصر.. ومنها خرجت عائدة إلى فلسطين عندما رأى القديس يوسف خطيب العذراء حلما يأمره فيه الملاك جبرائيل بأن يعودوا إلى أرض فلسطين.

هنا.. فى قلب هذه الكنيسة.. يفرض جلال التاريخ وجلال الفن جوا من الصمت

والتأمل .. وتكاد الأصابع تلمس موقع البذرة .. وأول الجذور.. فعلى هذا الحجر نفسه كان يجلس المسيح .. وفى هذه المغارة الصغيرة ترددت كلماته .. واليوم صار الحجر مذبحا والمغارة هيكلا مقدسا شعلته لا تنطفىء أبداً ..

• • •

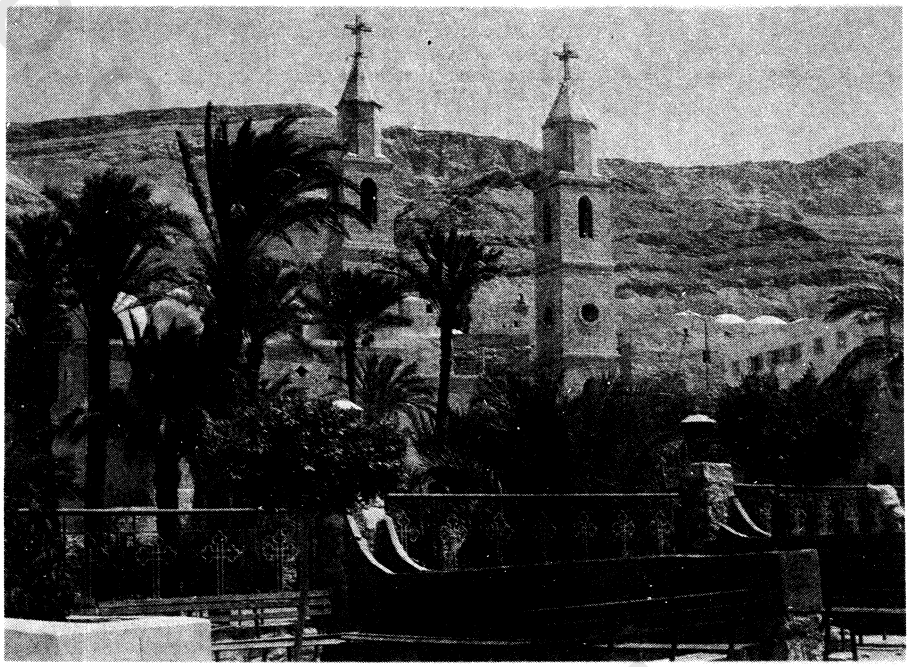

دير الأنبا أنطونيوس